سلسلة السراج المنير 6

معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للأطفال

عبد العزيز مصطفى الشامي

Muslim World League
The Global Commission for Introducing The Messenger

رابطة العالم الإسلامي
الهيئة العالمية للتعريف بالرسول ونصرته

www.mercyprophet.com

- فطن الرسول ﷺ إلى أن التعامل الناجح مع الطفل يعتمد على أساليب تربوية مدروسة، تقوم على العلم والخبرة والتجربة وسعة الصدر والصبر والاحتواء؛ ونظرًا لأهمية تلك المرحلة العمرية فقد صاغ لها ﷺ منهجًا في التعامل التربوي والعلمي، أنتج شخصيات ناجحة منجزة، وقيادات متميزة فذة، وعلماء متفردين عباقرة، ومن أهم محاور المنهج التربوي في تعامله ﷺ مع الأطفال :

اللطف بالأطفال والبساطة في التعامل معهم :

- الأطفال دومًا يحبون من يتبسط معهم، ويعايشهم وكأنه واحد منهم، وينفرون من الغليظ العبوس الغاضب، ويتحفزون للجاد الوقور، وقد علم ﷺ طبائع ذلك العمر، وكان يتعامل معهم بما يحبونه، ويحاول أن يبث من خلال بساطته معهم ومزاحه وتلطفه بهم معانٍ مهمة في تقويم السلوك وتكوين الشخصية الناجحة.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء؛ فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذًا رفيقًا

ويضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذيه.[1]

- إن الطفل لا يمكن أن تعي مداركه الواجبات والحقوق والأصول والمبادئ والقيم والمعاني، إنما يبدأ في تلقيها خطوة خطوة عبر سنين حياته، ومخطئ من يتعامل مع الطفل تعامله مع الكبير، الذي لا بد أنه يعرف الأصول والضوابط، ولهذا نجد أناسًا كثيرين يسيئون معاملة الطفل؛ حيث يطالبونه أن يكون ساكنًا هادئًا رزينًا وقورًا، وهو ما لا يستطيعه.

- تحكي لنا صحابية اسمها أم خالد عن مشهد كان في طفولتها لا زالت تذكره وتقول : « أتيت رسول الله ﷺ مع أبي، وعليَّ قميص أصفر. قال رسول الله ﷺ : سَنَهْ سَنَهْ. قالت : فذهبتُ ألعب بخاتم النبوة فَنهاني أبي. قال رسول الله ﷺ : دعها. ثم قال رسول الله ﷺ : « أبْلِي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي ».[2]

- إنه مشهد متميز ومعبر عما نريد أن نقوله، يأتي الرجل ومعه ابنته إلى الرسول ﷺ وهو يعلم حبه للأطفال ،

(١) رواه أحمد (١٠٢٨١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٠/٩): ورجال أحمد ثقات، وحسنه الأرناؤوط.
(٢) رواه البخاري (٣٠٧١).

وأنه لا يتبرم ولا يتأفف من لقائهم، بل يبَشّ لهم ويسعد بهم، وتجترئ البنت عليه وتتعلق على ظهره وتلعب، وهو يضحك ولا يتأفف بل يدعو لها ويكرر دعاءه ثلاثًا.

- وربما حمل الرسول محمد ﷺ الطفل الصغير فيبول على ثوبه، فيدعو بماء فينضَح ثوبه به، ولا يغسله. وقد تكررت مواقف بول الأطفال الصغار على ثيابه وفي حجره ﷺ من كثرة حبّه لهم وحمله لهم، ولم يقتصر حمله على الصبيان بل والبنات أيضًا، تقول أم كرز الخزاعية: «أُتِيَ النبي ﷺ بغلام فبال عليه، فأمر به فنضح، وأتي بجارية فبالت عليه فأمر به فغُسل».[٣]

- ويقول صاحبه أبو موسى الأشعري: «وُلِد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ فسماه إبراهيم فحنكه بتمرة، ودعا له بالبركة».[٤]

- وكان يداعب رسول الله الأطفال حتى في طرقاته، يقول يعلى بن مُرَّة: خرجت مع النبي ﷺ على طعام، فإذا الحسين بن علي يلعب في الطريق، فأسرع النبي أمام القوم، ثم بسط يديه ليأخذه فطفق الغلام يفر هنا ويفر هنا، ورسول الله يلاحقه ويضاحكه، بل كان يأخذ أسامة بن زيد

(٣) رواه أحمد (٢٦٨٣٤) وصححه الأرناؤوط.
(٤) متفق عليه .

والحسن بن علي فيقعدهما على فخذه كل على ناحية ثم يضمهما ويقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما».[٥]

وحتى في لحظات الصلاة جاءته أُمامة بنت ابنته زينب، فحملها في صلاته فإذا ركع وضعها وإذا قام حملها.[٦]

- ويقول محمود بن الربيع: «عقلت مَجَّة مجَّها رسول الله ﷺ في وجهي، وأنا ابن خمس سنين من دلو».[٧] يعني لا يزال يذكر كيف دفع الرسول محمد ﷺ الماء من فمه في اتجاهه يداعبه به، وكان عمره يومها خمس سنين.

- وكان إذا سمع بكاء طفل أثناء صلاته خفَّف في الصلاة؛ كي تنتهي أم الطفل من الصلاة وتحمل ابنها، أو تُسكت بكاءه وتلبي حاجته، فقد قال في حديثه: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي؛ كراهية أن أشقّ على أمه».[٨]

- وكان يلاعبهم ويتحدث معهم في شئونهم الخاصة، ولو كانت لا تمثل أهمية لمثله، فعن أنس قال: « كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عُمَيْر، وكان له طير يلعب به، فكان الرسول ﷺ إذا جاء قال: يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر؟».[٩]

(٥) رواه البخاري (٦٠٠٣).
(٦) متفق عليه.
(٧) متفق عليه.
(٨) متفق عليه.
(٩) متفق عليه.

تقدير الطفل واحترامه :

- وقد حرص الرسول ﷺ أثناء تعامله اللطيف مع الأطفال على احترام نفوسهم وذواتهم، وإيصال أفضل المفاهيم إليهم بأيسر الوسائل وأقومها، ولم يكن يعنفهم، يحكي لنا أحد الأطفال هذا الموقف له مع الرسول ﷺ وهو عبد الله بن عامر فيقول: «دعتني أمي ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: هَا تعالَ أعطيك، فقال ﷺ : ما أردت أن تعطيه ؟ قالت: أعطيه تمرًا. فقال لها: «أما إنك لو لم تعطه شيئًا لكُتبت عليك كذبة».(١٠)

- فهو يحذرها من أن تكذب على الصبي أو تستهين بمشاعره، ولو أن تقول له تعال أعطيك شيئًا، ثم لا تفعل.

- وحين يرى الرسول ﷺ على الأطفال ما يستوجب التقويم والتعديل، فإنه يتعامل معهم برفق دون تأنيب أو صراخ، يقول عمر بن أبي سلمة : « كنت غلامًا في حِجْر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة؛ فعلَّمه رسول الله ﷺ في رفق ولين كيف يأكل فقال له: «يا غلام سم الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك».(١١)

(١٠) رواه أبو داود (٤٩٩٣) وحسنه الألباني.

(١١) متفق عليه.

- كما سعى الرسول ﷺ أن يربي الأطفال عبر تعاليمه وسلوكه على معاني الرجولة والمروءة منذ صغرهم، فكان يعطي الأطفال جرعات متدرجة من تلك المعاني عبر المواقف المتناثرة والمتفرقة، فكان ربما أجلس بعض الغلمان كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر في مجلسه ومع أصحابه ليتعلموا وينضجوا، فيحكي عبد الله بن عمر فيقول: كنا عند النبي ﷺ فأُتِي بجُمَّار، فقال: إن من الشجر شجرةً مثلها كمثل المسلم، فأردت أن أقول هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم فسكتُّ، قال النبي ﷺ : «هي النخلة».(١٢)

- وعلَّم عبد الله بن عباس وهو غلام صغير كان يردفه خلفه على دابته معانٍ عظيمة بكلمات بسيطة مفهومة، فقال له: «يا غلام احفظ اللّه يحفظك...» إلى آخر الحديث.(١٣)

- بل يذهب الرسول ﷺ في تقديره للأطفال مذهبًا بعيدًا في مجتمع كان لا يقيم للصغار وزنًا، فيجلس أحدهم إلى يمينه، وهذا يجعله أحق بالتقديم من كبار القوم، يقول سهل بن سعد الساعدي: إن رسول الله ﷺ أُتِي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ فقال الغلام: لا والله لا أؤثر بنصيبي منك أحدًا».(١٤)

(١٣) رواه الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني.

(١٤) متفق عليه.

- لقد راعى الرسول ﷺ الأمرين معًا، راعى حق الطفل واستأذنه، وراعى حق الكبار فطلب من الصغير أن يتنازل لهم، فلما أصرَّ على موقفه، لم يعاتبه ﷺ أو يعنفه، بل أعطاه حقه.

الحفاظ على حقوق الطفل الأسرية والاجتماعية:

- اهتم الرسول ﷺ بحفظ حق المولود في النسب المعلوم والموثق والمشهود عليه، والمعلن من زواج صحيح، ومنع إنجاب الأطفال خارج العلاقة الزوجية الشرعية؛ حماية لهم من المشكلات المستقبلية، فضلاً عن طهارة المجتمع من الرذيلة والفساد واختلاط الأنساب.
- وأكّد الرسول ﷺ عن حق الطفل في أن يختار له أبوه أماً ذات خُلُق حميد، وحقه في أن يسميه أبوه اسمًا حسنًا غير مستنكَر ولا مستهزأ به، وحقه في الرضاعة الطبيعية، وحقه في أن ينشأ في بيئة سليمة وقرابة محيطين به، وحقه في تربية إيمانية حسنة، وحقه في الحفظ من الاعتداء الحسي والنفسي والجنسي واللفظي .
- كما أكدت الرسالة المحمدية على حق الطفل في الميراث والوصية، وأكدت تأكيدًا كبيرًا على حق الطفل اليتيم في الرعاية والعناية الكاملتين، وأن يُحفَظ له ماله، وأن يحميه مجتمعه ويعطف عليه، ويرعاه ويكفله الكفالة التامة.